جبريل محمد

استعراض كتاب: أبراهام ليئون
المفهوم المادي للمسألة اليهودية

"تحرير اليهود يتم بتحرير المجتمع من يهوديته"

خلفية

برزت المسألة اليهودية خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، كمسألة متعددة الأوجه، فمن ناحية اليهود، تطورت حاجة إلى نوع من الاستقلال عن البنية الاجتماعية السياسية للمجتمعات الغربية والسعي نحو بناء كيان يهودي مستقل، بينما جاء ذلك على خلفية تصاعد ما عرف بـ "اللاسامية" في مجتمعات أوروبا الغربية والشرقية، حيث التقت دعوة اللاسامية مع رغبة قيادات يهودية في بناء الكيان اليهودي الخاص، غير أن هذه الظاهرة لم تكن خارج إطار الحراك الاجتماعي الاقتصادي وبالتالي السياسي في أوروبا التي انتعشت فيها الحركات القومية مع تطور الرأسمالية وتحلل البنى الإقطاعية، هنا جرت محاولات يهودية للبحث عن طريق لتحقيق كيانيتهم الخاصة خارج المجتمعات التي يعيشون فيها، مقتفية آثار حركات ونزعات قومية أوروبية وليدة.

لقد بدأ ذلك مع تشكيل مجموعة "أحباء صهيون" في القرن الثامن عشر بهدي ما كتبه ليوبنسكر حول "التحرير الذاتي لليهود"، عام ١٨٨٢، والذي لقي دعما وتشجيعا من البارون اليهودي الفرنسي روتشيلد، مقابل ذلك ظهرت جمعيات وشخصيات تدعو إلى اندماج اليهود في مجتمعاتهم، مثل دعوات شبتاي زئيفي، غير أن الغلبة في النهاية كانت - وتحت وطأة تصاعد العداء لليهود في أوروبا- للجناح الذي نادى بالكيانية المستقلة لليهود خارج المجتمعات التي يعيشون فيها.

يعتبر كتاب ثيودور هرتسل "دولة اليهود" إنجيل الصهيونية حتى الآن، هرتسل، الصحافي النمساوي انتقل بالصهيونية من حركة تبشيرية إلى سياق عملي تكلل بالمؤتمر الصهيوني الأول الذي عقد عام ١٨٩٧.

ورغم ذلك، كان أغلب النقد للصهيونية، كحركة تحاول إحياء "الشعب اليهودي" ينطلق من حركات وأفكار ذات طابع يساري أو أنها يسارية بشكل كامل، فقد تصدى ماركس للمسألة اليهودية وبين أن تحرر اليهود يتم من خلال تحرر المجتمع من الرأسمالية، وأن اليهودية لم تبق رغما عن التاريخ بل بقوة التاريخ، فيما أكمل ذلك لينين بنقده لحركة البوند، مؤكدا على ما طرحه ماركس من ضرورة اندماج اليهود في مجتمعاتهم، وأن الصهيونية ما هي إلا ثمرة التحالف بين الرأسمالية اليهودية والرأسمالية العالمية، وهي تقوم بخدمة مصالح الدول الإمبريالية.

لم تظهر المسألة اليهودية في الشرق- في آسيا وإفريقيا أو في أميركا اللاتينية- رغم وجود عدد كبير من اليهود في هذه المنطقة، بل ظهرت في قارة أوروبا، وحتى في أميركا الشمالية كاد اليهود أن يندمجوا في المجتمع الأميركي المتشكل وبذلك، كانت المسألة اليهودية مسألة أوروبية في الأساس.

من هنا يدخل ابراهام ليئون في النقاش الذي كان دائرا في الأوساط اليهودية حول الصهيونية والمسألة اليهودية، محاولا تأسيس نظرية حول هذه المسألة من منطلق ماركسي- تروتسكي، حيث نشر الكتاب في مجموعة من المقالات في مجلة تروتسكية بلجيكية، (نضال العمال) ليتم جمعها في الكتاب الحالي عام ١٩٤٢.

يشمل الكتاب ثمانية فصول بادئا بطرح منهجيته حول المسألة اليهودية، ثم استعراض تاريخ اليهود والمسألة اليهودية، حيث قسمها إلى فترات تاريخية تبدأ بكل حقبة ما قبل الرأسمالية، ثم بالرأسمالية المانيوفاكتورية في العصور الوسطى، ثم في الرأسمالية الصاعدة، وفي فترة الإمبريالية التي يسميها فترة انحطاط الرأسمالية. ثم يطرح في الفصل الأخير سبل حلّ المسألة اليهودية.

يكتسب الكتاب أهميته من توسعه في نقاش المسألة اليهودية وليس التاريخ اليهودي، لكنه يركز في النهاية على دور يهود أوروبا عبر مراحل تطور الرأسمالية ، ومكانتهم الخاصة في التشكيلة الاجتماعية الاقتصادية التي كانت سائدة.

قدم للكتاب في طبعته الأولى المفكر التروتسكي وقائد الأممية الرابعة آرنست ماندل، فيما أضيف على الكتاب تعليقان متأخران ارتبطا بنهوض الحركة الوطنية الفلسطينية وتصاعد دور منظمة التحرير الفلسطينية، حيث علق المفكر الفرنسي مكسيم رودنسون على الكتاب في طبعته الثانية عام ١٩٧٣، ناقدا بعض منطلقات ليئون النظرية، مبينا أن الصهيونية لم تكن وليدة البرجوازية الصغيرة الطامحة لبناء كيان قومي، بل إنها ثمرة الرأسمال اليهودي المتحالف مع القوى الرأسمالية الغربية التي دخلت مرحلة الاستعمار المباشر، فيما رد وينشتوك على رودنسون مؤيدا ومبررا طروحات ليئون.

صدر الكتاب باللغة الفرنسية، وترجم لأكثر من لغة منها العربية، حيث صدرت طبعته الأولى عن دار الطليعة ببيروت عام ١٩٧٠، فيما صدرت الطبعة العربية الثانية عن نفس دار النشر عام ١٩٧٣.

حول أبراهام ليئون

مع نهاية الحرب العالمية الأولى، عام ١٩١٨، ولد ليئون في وارسو، لعائلة من الطبقة اليهودية المتوسطة، وكانت بولونيا وقتها تخوض صراعات داخلية عنيفة، وتحت وطأة الصراع اضطرت عائلته وهو

في ريعان الصبا إلى الهجرة إلى فلسطين، لكنها لم تمكث فيها سوى سنة واحدة، نظرا لصعوبة الحال، وعادت لتهاجر مرة أخرى إلى بلجيكا لتتفتح عيناه هناك على الفكر الاشتراكي العمالي، وارتباطا بكونه يهوديا فقد تأثر بالتمييز الذي كان يمارس ضده من جهة وبنظرية بوروشوف حول الاشتراكية الصهيونية، وأن الحل الحقيقي للمسألة اليهودية هو في اقامة نظام اشتراكي يهودي في فلسطين. على إثر ذلك التحق ليئون بمنظمة "هشومير هتسعير" ونشط فيها ليصبح قائدها في بروكسل، ثم رئيسا للاتحاد الصهيوني في بلجيكا (مقدمة آرنست ماندل).

اكتشف خلال تفاعله الفكري مع نقابات العمال البلجيكية -بعد أن ترك المدرسة وعمل في مناجم الفحم هناك- زيف الجمع بين الاشتراكية والصهيونية، ليبدأ بنشر مقالاته في جريدة نضال العمال حول المسألة اليهودية عام ١٩٤٠ مع تصاعد النازية منتقدا كل الدعوات التي كانت تؤيد التحالف مع بريطانيا احتماء من النازية. وبعد قطيعته التامة مع الصهيونية قاد الحركة التروتسكية في بلجيكا، وحاول أن يخلق ترابطا بين الحركات التروتسكية في أوروبا خاصة بعد مقتل تروتسكي، لكنه وفي خضم التحضير للمؤتمر العام القي القبض عليه من قبل الغستابو ليودع في معتقل أوشفيتس وليتم إعدامه هناك عام ١٩٤٤ (آرنست ماندل).

حول الكتاب

وضع ليئون كتابه هذا، كردة فعل على الدعوات الصهيونية اشتراكية الطابع أو غيرها لاستعمار فلسطين، بعد أن قرر بحسم انحيازه المناهض للحركة الصهيونية التي كان أحد الفاعلين في تنظيمها في أوروبا وخاصة بلجيكا.

ينطلق ليئون في تحليله خلال الفصل الأول من الكتاب من المفهوم المادي التاريخي، مستندا إلى مقولة ماركس: "يجب أن لا نبحث عن سرّ اليهودي في دينه، بل عن سر الدين في اليهودي الواقعي". وأنه بدون "دراسة عميقة للتاريخ اليهودي، من الصعب فهم المسألة اليهودية الحالية (ص٨)". وعليه يبني نموذجه التحليلي التاريخي عبر نقده السريع للنظريات الأخرى التي بررت استمرار المسألة اليهودية تاريخيا، والتي نظرت إلى "الشتات اليهودي" كسبب لاستمرار المسألة اليهودية ومقاومة الاندماج في المجتمعات التي عاشوا فيها.

لقد بين أن "الشتات اليهودي" لم يكن تاريخيا يشكل مجموعة اجتماعية متجانسة ومتكاملة، كما فند الزعم القائل إن اليهود شتتوا عندما سقطت القدس عام ٧٠، عبر إثباته أن الشتات اليهودي كان قبل ذلك بقرون، (ص١١) وأنه لم يكن وليد العنف أو القهر، بل كان وليد النشاط الاقتصادي التجاري لهم. وبين أن اليهود في مختلف بقاع العالم غير فلسطين في تلك الفترة - كانوا يشكلون ٧٥ ٪ من اليهود- لم يكن لهم اهتمام كبير بالمملكة اليهودية في فلسطين.

يقدم ليئون بنقده للنظريات الأخرى أطروحته بأن " اليهود عاشوا في التاريخ ضمن دور اقتصادي اجتماعي محدد، جعلهم يشكلون (شعبا- طبقة)، وأن سعيهم للحفاظ على كيانهم كطبقة لها دور اجتماعي دفعهم إلى صيانة خصائصهم الدينية والعرقية واللغوية (ص١١).

يقدم ليئون في الفصل الثاني من الكتاب حتى السابع، عرضا اقتصاديا اجتماعيا تاريخيا لليهود، يمتد من المرحلة ما قبل الرأسمالية وصولا إلى مرحلة الإمبريالية كأعلى مراحل للرأسمالية تعبر عن تعفنها وانحطاطها، ويقدم خلال هذا العرض العديد من الوقائع والأحداث المترابطة التي تبين موقع اليهود الاقتصادي والاجتماعي في النظم والتشكيلات الاجتماعية الاقتصادية المتعاقبة، وما طرأ على دور ووظيفة اليهود من تغيرات في كل حقبة وتشكيلة.

حول واقع اليهود في مرحلة ما قبل الرأسمالية بين ليئون أن النشاط الرئيسي لهم كان في التجارة، إضافة للتسليف، وأن علاقتهم بفلسطين في العصور القديمة كانت باعتبارها ممرا للتجارة بين النيل والفرات، موضحا أن هناك مبالغة في تقدير دور سبي بابل في تفريغ فلسطين من اليهود، فأغلب يهود فلسطين لم يغادروها مع السبي، وأن دور الفرس في إعادتهم بعد السبي لم يكن سوى دور رمزي اقتصر على إرساليات تحاول إعادة بناء الهيكل، وتجنيد الأموال لذلك، وأن اللغة العبرية لم تعد في تلك الفترة حية حيث اضمحلت في القرن الخامس قبل الميلاد وسادت بينهم اللغة الآرامية.

وينتقل إلى معالجة دور اليهود في الفترة الهلينية، حيث توطد دورهم بعد فتوحات الإسكندر، ونشأت حواضر يهودية في كل من الإسكندرية وأنطاكيا، واشتغل اليهود بالتجارة في مجتمع اقتصاده طبيعي قائم على الزراعة ويحتقر المهن الأخرى غيرها، ورغم ذلك كان اليهود الموردون لاحتياجات الملوك والقادة من بضائع يجلبونها إليهم. وأن دورهم في هذا المجال رغم أنه ارتبط برضى الفئات العليا، اجتنب سخط الفلاحين عليهم.

وفي الفترة الرومانية تقلب وضع اليهود، حيث كان المجتمع باقتصاده الطبيعي الفيزيوقراطي المعتمد على الزراعة والاكتفاء الذاتي يحتقر مهنة التجارة، ولم يكن المجتمع يتقبل اليهود، لكن الإمبراطورية الرومانية تعاملت معهم بامتيازات، كونهم كانوا يوفرون المال للطبقة العليا التي أسرفت في البذخ لدرجة أعطي فيها اليهود امتيازات خاصة من قبل الأباطرة في الفترة الأولى من الحكم الروماني الذي لم يكن متبنيا للمسيحية، لكن توجه اليهود التجاري والربوي، مع انتشار المسيحية التي حرمت الربا، جعلهم موقع اضطهاد وتحقير، كما أن اليهود في تلك الفترة شكلوا عنصر قلق للإمبراطورية الرومانية فجرى اضطهادهم وطردهم من كثير من المواقع التي عاشوا فيها، غير أن ما جرى عام ٧٠ ميلادي قد ضخم حيث لم يطرد اليهود من فلسطين بشكل كامل، وإن القول بأن طرد اليهود من القدس عام ٧٠ م هو سبب الشتات يخالف الحقيقة.

ويبين ليئون أن المسيحية حين ظهرت جاءت كرد فعل لليهودية الشعبية على التجار والمرابين اليهود، وأنها لم تعاد اليهود كدين بقدر ما عادت اليهودية كوظيفة ودور اجتماعي اقتصادي. يخلص ليئون هنا إلى أن اليهود استمروا بسبب التشتت وليس رغما عنه، ولو لم يحصل الشتات قبل سقوط القدس لاندثر اليهود كالأمم البائدة الأخرى.

ازدادت أهمية اليهودي التاجر بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية، وبات جزءا من تنظيم الدولة المالي، ومنهم من استخدم وزراء للمال وجباة وأمناء ضرائب حيث كانت مرتبتهم بمرتبة النبلاء.

نشط اليهودي في عصور الاقطاع كتاجر ومراب، وقد كان اليهود في كثير من الأحيان ذوي مكانة تصل إلى مرتبة النبلاء، فقد استخدمهم الملوك الإقطاعيون كصيارفة يمارسون من خلالهم الربا، كما تمتع النبلاء بما يقدمونه من بضائع مستوردة، وكانوا هم المسلفون للحرفيين والفلاحين في الاقطاعيات المختلفة، غير أن هذا الدور ولد حقدا عليهم سواء من النبلاء أو من الفلاحين والحرفيين، في حين حظوا برضى الملوك.

غير أن التحول من الاقتصاد الطبيعي إلى الاقتصاد التبادلي ولد طبقة تجارية محلية من غير اليهود أدت إلى سحق المركز التجاري اليهودي، حيث تخلوا نتيجة ذلك عن التجارة واكتفوا بالربا والصيرفة في القرون بين الثاني عشر والرابع عشر الميلادية، وبسبب ثقل الربا الذي حرمته المسيحية ليصبح امتيازا لليهود، تحول المنتجون والفلاحون والبرجوازية الوليدة إلى معاداة اليهود وممارسة العنف ضدهم، فاضطروا للهجرة من أوروبا الغربية إلى أوروبا الشرقية. هنا انتصب التجار الجدد المحليون في صراع ضد التاجر اليهودي، بمعنى أن الوظيفة الاقتصادية الجديدة للتاجر المحلي، باتت منافسة لوظيفة اليهودي الاقتصادية في المجتمع.

بنشوء الصيرفة وانتشارها مع تحلل الاقطاع بدأت تتقلص وظيفة المرابي اليهودي، الذي اقتصر دوره في عمليات ربوية صغيرة أو عبر رهونات لعقارات يملكها فلاحون أو حرفيون صغار، ليعيش اليهود في مسامات المجتمع كبائعين جوالين وأصحاب حرف صغيرة ومن هنا نشأ الغيتو.

ترافق سقوط الاقتصاد المستند إلى القيمة الاستعمالية بانهيار وظيفة اليهود الاقتصادية والاجتماعية، وأدى ذلك إلى هجرة اليهود من أوروبا الغربية أو اندماجهم، مما زاد من حدة المسألة اليهودية في أوروبا الشرقية.

تغير الوضع بالنسبة لليهود في عصر النهضة، فقد تلاشت كثير من وظائفهم الاقتصادية بعد نشوء الصناعات وتفكك الحرف، حيث ساهمت الثورة الصناعية بدمج اليهود في أوروبا الغربية. لكن المسألة اليهودية انتعشت في أوروبا الشرقية الأقل تطورا، والتي كان وضعهم المؤسسي فيها خاصة بولونيا كدولة داخل دولة، ومع بداية التطور في أوروبا الشرقية، اجتمعت البرجوازية الناشئة مع الحرفيين والفلاحين على معاداة اليهود، كمرابين ، الأمر الذي دفع إلى طرح موضوعة إنتاجية اليهود في القرن السابع عشر حيث تفكك الاقطاع وولدت رأسمالية جديدة في أوروبا الشرقية، هنا ومع ترسمل روسيا واندثار الدور الاقتصادي لليهودي تحول اليهود في أوروبا الشرقية إلى عمال في المصانع الاستهلاكية الصغيرة، ما أدى إلى تمايز اجتماعي بين اليهود أنفسهم استطاع أن يزعزع الأسس التقليدية لليهودية ولم يصمد الحرفي اليهودي أمام تطور الصناعة.

ومع صعود الرأسمالية، سرت اتجاهات متناقضة بين اليهود في أوروبا، فمنهم من سعى للاندماج باستغلال ما فتحته الثورة الفرنسية من آفاق لعلمنة المجتمع وتوسع في الحريات، ومنهم من رأى في اشتداد النزعة القومية لدى الأمم الوليدة وخاصة في أوروبا الشرقية مدعاة لبعث المسألة اليهودية، لقد سعى نابليون لدمج اليهود، وعزز من دورهم. هذه الاتجاهات المتناقضة أبرزت المسألة اليهودية كمسألة يهود أوروبا الشرقية، التي بدأ من يقطنها

يهاجر إما لأميركا أو فلسطين، وبدأ اليهود أنفسهم ينتقلون من المدن الصغيرة إلى المراكز الصناعية الكبرى، وظهرت زيجات مختلطة بين اليهود وغيرهم، لكن تكدس اليهود في المدن الكبيرة خلق لديهم سعيا لبناء مؤسساتهم الخاصة وإحياء اليديشية، وبالتالي عودة لإحياء المسألة اليهودية.

نشأ هذا التناقض بين التوجهات اليهودية، بسبب فقدان الأساس الاقتصادي للدور اليهودي من جهة، وحرصهم على البحث عن دور لهم في البنى الاجتماعية القائمة، أدى هذا التناقض إلى وجود دعوات شبتاي زئيفي للاندماج، ودعوات ليوبنسكر للتحرر الذاتي والاستقلال في كيان سياسي مختلف.

لكن مع تفاقم الأزمة العامة للرأسمالية ودخولها مرحلة الإمبريالية وتوقف تطور القوى المنتجة، وانخفاض الهجرة من أوروبا الشرقية، عادت عقدة اللاسامية للظهور في أوساط الطبقة الوسطى اليهودية نتيجة انهيار الطبقات المتوسطة في أوروبا كجزء من تداعيات الأزمة العامة للرأسمالية، ما أدى إلى وجود تنافس على فرص العمل في بلدان أوروبا وأميركا، الأمر الذي زاد من دعوات اللاسامية من جهة، ومن النزعات العنصرية المتمثلة بالنازية والفاشية، وقد استغلت الاحتكارات والطبقات الرأسمالية السائدة في أوروبا هذه الظاهرة بما يحرف نضال العمال الأوروبيين ضد الرأسمالية نحو صراع داخلي مع اليهود، كما عملت الحركة الصهيونية على استغلال ما يجري لتعزز من نفوذها في أوساط اليهود وتحريضهم على دعم فكرة العودة إلى صهيون.

ولدت مجازر ١٨٨٢ في روسيا وبولونيا، و قضية دريفوس رد فعل من البرجوازية الصغيرة اليهودية على اللاسامية، ورغم ادعاء الصهيونية أنها قادمة من الماضي السحيق، إلا أنها في رأي ليئون وليدة المرحلة العليا من الرأسمالية التي تعفنت وانحطت، فحلم صهيون في الفترة التي سبقت الصهيونية كان حلما مثاليا وقامت الصهيونية بتحويله لموضوع قومي سياسي، مقارنين أنفسهم بالامم المتشكلة حديثا، مع أنها نتاج توقف تطور القوى المنتجة، أي أنها ثمرة عصر الإمبريالية.

تمثلت خلاصة بحث ليئون في أن اليهود خليط عرقي متنافر، وأن المسألة اليهودية القديمة لا ترتبط بالمسألة اليهودية التي نتجت عن الحداثة، وأن الصهيونية حولت المسألة اليهودية إلى مشروع سياسي قائم على تحويل الشعب / الطبقة الذي قارب على الانتهاء إلى دولة على أرض فلسطين، ولذلك يرى أن الصهيونية هي ردة فعل البرجوازية اليهودية الصغيرة على القمع والاضطهاد الذي يتعرض له اليهود في أوروبا وعلى توقف تطور الرأسمالية، ففي عصر صعود الرأسمالية لم تتطور مسألة يهودية حقيقية، لكن مع أزمتها برزت الصهيونية كمدخل لخلاص اليهود.

يطرح ليئون في نهاية الكتاب حلا للمسألة اليهودية خارج الحلّ الصهيوني الذي لا يرى فيه حلا بقدر ما يرى فيه مشكلة، أهم مظهر لها هو أن مباشرة المشروع الصهيوني في فلسطين سيصطدم بحركة قومية عربية رافضة لهذا المشروع، وأن دوامة من الصراع ستستمر، وأن الحل الحقيقي يكمن في انصهار اليهود في المجتمعات التي يعيشون فيها وفي الانخراط في النضال الطبقي ضد الرأسمالية، وأنه لا يمكن لفلسطين واستيطانها وإقامة الدولة اليهودية عليها أن تكون سوى نوع من تسكين الألم لا علاجه.

بقي أن نقول إن كتاب ليئون على أهميته، لم يتعرض ليهود الشرق ودورهم في الدولة العربية الإسلامية وفي إطار الدولة العثمانية، كما أن مفاهيمه حول كون الصهيونية أيديولوجيا البرجوازية الصغيرة اليهودية، لا زالت موضع جدال حتى بين الماركسيين أنفسهم، فهناك من يرى أن خطأ تحليل التروتسكيين للمسألة اليهودية نابع من اعتبارها أيديولوجيا لطبقة غير قادرة على ممارسة الحكم، وأن الصهيونية كانت وليدة تحالف رأس مال يهودي كبير مع الدول الاستعمارية، وعبر تشابك مصالح بين مشروعها ومشروع الاستعمار. هذا الجدل لا زال قائما حتى الآن، وهو ليس جدل لا طائل تحته، بل هو جدل حول اليهودية بما هي ديانة أم قومية. أن رودنسون في نقده لابرهام ليئون يركز على هذه النقطة، مع اتفاقه على الموقف العام من الصهيونية.